التقابل الدلالي التشجيري في القرآن الكريم
لوحة الليل والنـهار أنموذجاً

د. علاء جبر محمد
كلية الآداب /الجامعة المستنصرية

توطئة :

النص القرآني نصّ متعدد القراءات وفقا لتعدد زوايا بنائيته ، إذ يتصف بسمات صياغية دفعت كثيراً من الكتّاب على وصفه ؛ لفرادتها وتميزها ، بالنص المعجز ، وقد طرح كثير من العلماء الأقدمين والباحثين المحدثين طروحات تتناول زوايا إعجازه ، وعلى الرغم من ذلك ((فالإعجاز القرآني متعدد النواحي ، متشعب الاتجاهات ، ولا يزال الناس يكتشفون من مظاهر إعجازه الشيء الكثير ، فلا غرو أن أقول إذن إنّ الاعجاز أكبر مما ينهض له واحد ، أو جماعة في زمن ما .

إنّ التعبير الواحد قد ترى فيه إعجازا لغويا جماليا ، وترى فيه في الوقت نفسه إعجازا علميا ، أو إعجازا تأريخيا ، أو إعجازا نفسيا ، أو إعجازا تربويا ، أو إعجازا تشريعيا ، أو غير ذلك ، فيأتي اللغوي ، ليبين مظاهر إعجازه اللغوي ، وانه لا يمكن استبدل كلمة بأخرى ، ولا تقديم ما أخر أو تأخير ما قدم ، أو توكيد ما نزع منه التوكيد ، عدم توكيد ما أكد ، ويأتيكم العالم في الطب ليقول من وجهة نظر الطب ، ألطف وأدق مما يقل اللغوي ، ويأتيكم العالم بالتشريع ليقول مثل ذلك من وجهة نظر التشريع والقانون ، ويأتيك المؤرخ ليقول مثل ذلك من وجهة نظر التاريخ ، ويأتيك صاحب كل علم ليقول مثل ذلك من وجهة نظر علمه))[١].

وينظر كثير من الباحثين إلى القرآن الكريم نظرة تقديسية وقفية بمعنى أنهم يتحذرون من الخوض فيه ، وأمثلة ذلك كثيرة لعل أشهرها موقف الأصمعي من تفسير وجه من وجوه ألفاظ غريب القرآن[٢] ، لكن هذا الموقف لم يمنع من النظر إلى القرآن فضلا عن كونه نصا إعجازيا لا طاقة لنا على إدراك خصائصه الفنية على الوجه الأكمل ((فانه نص أدبي باهر تتوفر فيه سمات أرقى نص عربي وصل إلينا دون ريب ، ومن هنا فنحن نختلف مع جملة من العلماء الذين يرون عناية القران بالألفاظ ناجمة عن العناية بأصناف البديع وفنون المحسنات اللفظية المتوافرة في القران ، ومع توافر هذه الفنون في القران فإنها غير مقصودة لذاتها ، وإنما جاءت بتناسقها ضرورة بيانية يقتضيها جمال القول ، وهذه الضرورة نفسها لم تكن متكلفة ولا ذات نزعة مفروضة كما هي الحال في الأسجاع المتناثرة هنا وهناك في النثر العربي القديم ، فإنها أريدت في النصوص الأدبية هكذا ، سواء أحققت الغرض المعنوي أم لم تحققه إطلاقا ، لان المهمة في مثل هذه اللوحات مهمة لفظية فحسب حتى أنها لتثقل النص بمحسنات يزداد معها النص انصرافا عن الديباجة والذائقة الفنية وتزداد معه النفس

---

[١] لمسات بيانية في نصوص من التنزيل : د.فاضل السامرائي : ٨.

[٢] بيان إعجاز القرآن : الخطابي : ٣٤ .

تبعا لهذا الانصراف عزوفا أو نفورا ، أما بالنسبة للقران العظيم فان هذه الظاهرة مدفوعة أصلا إذ ليس في القران مهمة لفظية على وجه ، ومهمة معنوية على وجه آخر بل هما مقترنان معا في أداء المراد من كلامه تعالى دون النظر إلى جزء على حساب جزء غيره ، فالتصور فيه دفعي جملي مرة واحدة دون تردد أو إمهال ،وحسبك ما تشاهده في جميع أصناف المحسنات البديعية الواردة في القران ، وفي طليعتها السجع وانتظام الفواصل وتوافقها دليلا على صحة هذا الرأي وطبيعي أن نهاية الفقرات والسجع في النثر العربي ، تقابله الفواصل في القران الكريم وهي تسمية اختارها جهابذة الفن وعلماء الصناعة تكريما للقران عن مقايسته بسواه) [٣].

ويسحبنا هذا التوصيف إلى الوقوف عند الوجه الدلالي من التميز البنائي للنص القرآني ، ولا تمثل وقفتنا هذه أولى الوقفات ، لكنها تحاول أن ترصد نمطاً صياغياً موحياً في دلالة النص القرآني الفريدة [٤].

---

[٣] تطور البحث الدلالي : د . الصغير : ٥٣-٥٤.

[٤] هناك كثير من الباحثين الذين ذهبوا إلى أن القرآن الكريم له نمط خاص في البناء اللغوي ، ومن أمثلته نظرية النظم عند الأقدمين كما في دلائل الإعجاز ، ونحو القرآن عند الأستاذ عبد الستار الجواري .

التقابل الدلالي وتقنية التشجير :

ينتمي موضوع التقابل الدلالي إلى المستوى الدلالي من مستويات الألسنية الحديثة ، ويعرّف بأنه (وجود لفظتين تحمل احدهما ضد المعنى الذي تحمله الاخرى أو هو الجمع بين لفظين متقابلين) [٥].

وعلى الرغم من كتابة بحوث ودراسات في هذا المجال ، وجدنا نمطاً صياغياً من التقابل الدلالي لم يشر إليه السابقون [٦] ويتميز هذا النمط باعتماده على (تقنية التشجير) في تفريع الدلالات المتقابلة في النص الواحد .

ولم تكن تقنية التفريع غائبة عن أذهان علمائنا الأقدمين ، بل كانت حاضرة في صور متعدد من صور التفكير البلاغي المشخص لفنون بنائية موحية من مثل (التفريع) الذي يعرف بـ ((التفريع مصدر قولك :"فرعت من هذا الأصل فروعا " إذا استخرجتها ، قال ابن رشيق "وهو من الاستطراد كالتدريج في التقسيم ، وذلك أن يقصد الشاعر وصفا ما ثم يفرع منه وصفا آخر يزيد الموصوف توكيدا ،.... والتفريع كما عند المصري نوعان ، أحدهما أن يبدأ الشاعر بلفظة هي إما اسم وإما صفة ثمّ يكررها في البيت مضافة إلى أسماء وصفات يتفرع من جملتها أنواع من المعاني في لمدح وغيره ، .... والنوع الثاني ، يتفرع منه معنى واحد من أصل واحد إما في بيت أو أبيات و إما في جملة من الكلام أو جمل)) [٧].

وفي ضوء ما تقدّم يمكن تعريف هذا النمط الجديد من أنماط التقابل الدلالي بأنه : **بناء محتمل الدلالة قائم على أساس التقابل المتفرّع الموحي بدلالات تبعية لأصول ثابتة .**

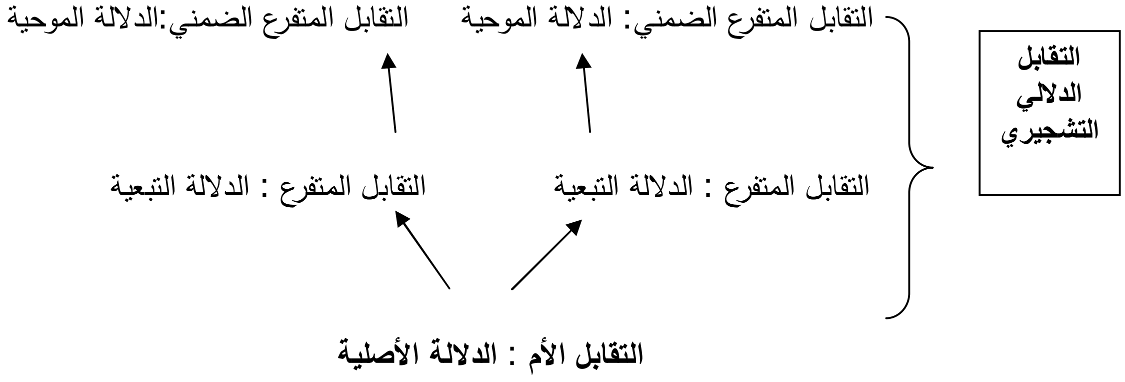

---

[٥] ظاهرة التقابل الدلالي في اللغة العربية ، رسالة ماجستير، عبد الكريم العبيدي : ٧٨ .

[٦] ينظر ظاهرة التقابل الدلالي في اللغة العربية ، رسالة ماجستير، عبد الكريم العبيدي ، وكتاب التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن ، عودة خليل أبو عودة ، مكتبة المنار الاردن الزرقاء ١٩٨٥

[٧] معجم المصطلحات البلاغية : د.أحمد مطلوب : ٣٩٦.

التقابل الدلالي التشجيري والمصاحبات المعجمية :

تطرح الألسنية الحديثة مجموعة من المقولات التحليلية لمفردات المعجم ومضامين المستوى الدلالي في اللغة ، ومن بين تلك المقولات (المصاحبات المعجمية : Collocations) ، وتناقش هذه المقولة [8] التعالق الدلالي بين الألفاظ عرفياً لا التزامياً ، إذ إنّ ((هناك مصاحبات معجمية لفظية ترتبط بمواقف لغوية معينة ، ولا تفهم إلا بإطارها فتصبح من الخصائص الشكلية الأسلوبية المميزة لأسلوب ذلك الموقف اللغوي ، مثل سباق التسلح ، الحرب الباردة ، الثورة الحمراء ، والانقلاب الأبيض ، وتعويم العملة ، والتضخيم المالي ، ....الخ .

فمثل هذه المصاحبات والتغييرات ترتبط بأسلوب الصحافة بالدرجة الأولى ، وقد ترتبط المفردات ضمن علامة المصاحبة اللفظية ارتباطا وثيقا جدا ، بحيث إذا استخدمتا معا ، تعطيان معنى مفردة واحدة ، ولا يفهم معناها العام من خلال المعاني الأصلية لمفرداتها منفردة ، بل يصبح لها مقابل معنوي واحد ، وهي ما يمكن أن نطلق عليه "الكنايات العامة " مثل : فلان على الحديد ، ينفخ في رماد ، حامل السلم بالعرض ، كفّ ما بتلاطم مخرز ...

وتتقاطع مجموعة المصاحبات اللفظية في المفردات ، بمعنى أننا نجد مفردتين أو أكثر تشترك في بعض المصاحبات اللفظية ، ولكن من الصعب إن لم يكن من المستحيل أن نجد مفردتين تشتركان في المصاحبات المعجمية جميعا ، فكلمة جميل تصاحب المرأة والرجل على حدّ سواء ، ولكن كلمة وسيم تصاحب الرجل فقط ، ومثل هذا كلمة مات التي تصاحب في استعمالنا الحديث الإنسان والحيوان ، وأما توفي فهي لا تتصاحب إلا مع الإنسان فقط ، وبصورة عامة فان دراسة المصاحبات اللفظية تشكل جزءا مهما في دراسة معاني المفردات ، لأننا نجد المفردة الواحدة تكتسب معاني مختلفة مع مصاحبات مختلفة ، مثل (اسود) حين تستخدم مع (ليل) فهي لا تعني ما تعنيه عندما تستعمل مع (نهار) مثلاً)) [9].

وتقدّم لنا تقنية التشجير في التقابل الدلالي صورة من المصاحبات المعجمية ؛ لأن العرف اللغوي يربط بين مجموعة هذه الألفاظ لا على سبيل الالتزام وإنما على سبيل التعارف اللغوي وفقاً لسياقات متنوعة .

---

[8] انزياح المصاحبات المعجمية : د. يحيى عبابنة : مجلة جامعة البعث ، حمص ، ١٩٩٩م.

[9] علم اللغة المعاصر : د. آمنة الزغبي بالاشتراك : ٩٠ – ٩١.

ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى التفرّع الدلالي المصاحب للسياق اللفظي الحاوي على التقابل الدلالي يقوم على أساس :

- توليد الدلالة التبعية للدلالة الأصلية في التقابل الأم .
- توليد الدلالة الموحية المتفرع عن الدلالة التبعية .

وسنقف في هذا البحث عند لوحة الليل والنهار في النص القرآني شريطة توافر أمرين :

١- ورود الليل والنهار في سياق نصي واحد كالآية الواحدة أو السورة الواحدة .

٢- بناؤهما على أساس التقابل المتفرّع لا الجامد .

ونقصد بالجامد : أن لا تتفرّع الدلالة الأصلية إلى دلالات تبعية وأخرى موحية ، بل تقف عند حدود التقابل الدلالي بمستواه الأول .

ويقتضي الفرض هنا أن التقابل الدلالي التشجيري يقدّم طبقات من التقابلات المنظورة أو المقدّرة تبعاً لتحمّل بناء النص للأوجه الاحتمالية للدلالة .

التقابل الدلالي بين صورتي الليل والنهار في القرآن الكريم :

ذكرنا في مستهل هذا البحث أن القرآن الكريم تتعدد فيه صيغ البناء بشتى صوره الصغرى والكبرى ، مما قدّم سمات خاصة ميزته مما سواه ، ولم يقف هذا التعدد عند حدود البناء الكلي للنص ، بل جاء في مستوياته التفصيلية الجزئية ولاسيما في التقابل الدلالي بحسبان صياغته اللفظية القاضية بذلك التقابل ، فقد جاءت كثير من النصوص على سبيل التقابل الجامد ، كما في قوله تعالى : ((**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [البقرة : ١٦٤]))** .

أو في قوله تعالى : **((إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ [آل عمران : ١٩٠]))**

أو في قوله تعالى : ((**تُولِجُ اللَّيْلَ فِي الْنَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الَمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ [آل عمران : ٢٧]))** .

فالتقابل بين صورتي (الليل والنهار) لم تتجاوز حدود الدلالة الأصلية لهما ؛ إذ لم تحضر المصاحبات المعجمية المفضية لتفريع الدلالة المتقابلة على نحو الدلالة التبعية والدلالة الموحية .

في حين وردت كثير من الآيات الأخرى في سور متنوعة من الذكر الحكيم مبنية على سبيل التقابل المتفرّع ، وسنقف عند أمثلة منها :

١- **((وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ [الأنعام : ٦٠]))** .

٢- **((هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ [يونس : ٦٧]))** .

٣- **((سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ [الرعد : ١٠]))** .

٤- **((وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً [الفرقان : ٤٧]))**.

٥- **((أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [النمل : ٨]))** .

٦- **((اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ [غافر : ٦١]))**

٧- ((َالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا [الشمس : ٣] وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا [الشمس : ٤])).

٨- ((وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً [النبأ : ١١] وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً [النبأ : ١٠])).

٩ - ((وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى [الليل : ١[وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى [الليل : ٢])) .

تقدّم الآيات السابقة مجموعة من المصاحبات المعجمية للفظتي الليل والنهار ، مما يشكل خطاطة متشعبة من التقابلات الدلالية المتعالقة ، وعلى الرغم من تشابه معطيات بعض الدلالات لم يشكل ذلك تكرارا معاداً على قدر ما شكّل تأكيداً لاتفاق التعالق المفضي للتصاحب المعنوي بين ألفاظ السياق الواحد على سبيل الآية أو السورة الواحدة .

ويمكننا أن نبين هذا التقابل التشجيري بالمخطط الآتي :

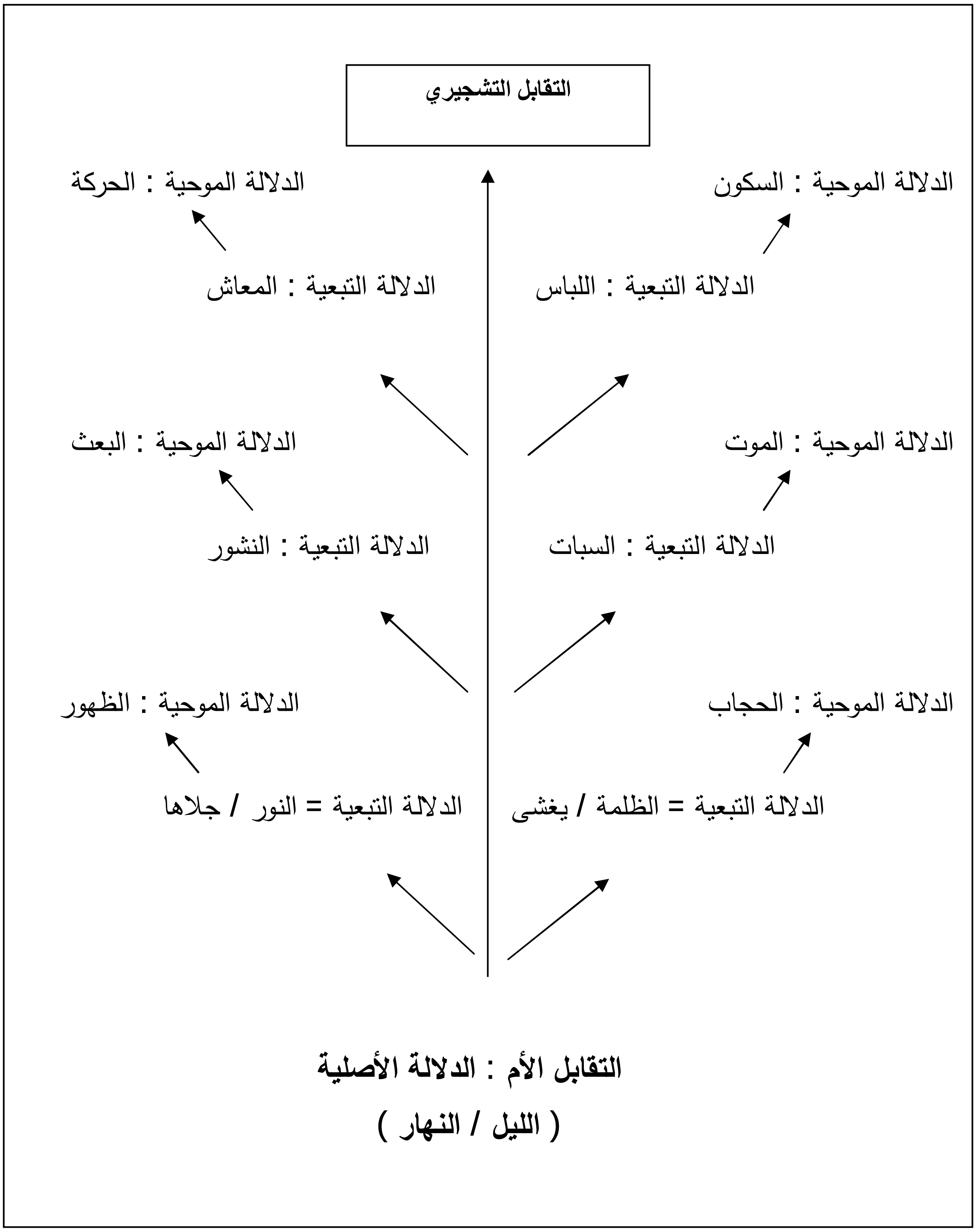

الخاتمة :

سعى البحث إلى الوقوف على بيان العلاقة الوثيقة بين المفردات اللغوية والأداء القرآني الذي استثمر القدرة اللغوية في اللغة العربية ومدّها من إعجازه لكي يخرجها بأحسن الإشكال وأروع الاستعمال وأعجزه ، على الرغم من كونه لم يخرج عن الحدود اللغوية إلا انه استطاع أن يبعث الحياة في تلك الألفاظ من خلال تلمس العلاقات البعيدة التي تتفرع منها ليربطا في الاستعمال مكونة بذلك شجرة من العلاقات المتلازمة المحي إلى دلالات متعدد في الاستعمال .

ويمكن أن نخلص ممّا سبق إلى الآتي :

١- لم تكن صياغة التقابل الدلالي على نمط واحد بل تعددت أنماطه تبعاً لتعدد طرائق الصياغة النصية في القرآن الكريم التي تعدّ من سماته المميزة له من النصوص البشرية الأخرى .

٢- تتبع التفرعات التقابلية في النصوص القرآنية من طبيعة البناء اللفظي المفضي للدلالة ، ويتركز التقابل التشجيري في البناء ذي الدلالة الاحتمالية .

٣- لا يدخل النمط التقابلي الجامد في مساحة التقابل التشجيري؛ لأنه لا يسهم في تشكيل تفرعات دلالية ثانوية (تبعية) وموحية .

٤- تساعد التقابلات التشجيرية على ربط ألفاظ السياق الواحد بعلاقات دلالية تعرف في الدرس اللساني الحديث بالمصاحبات المعجمية .

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم .
٢- إنزياح المصاحبات المعجمية : د. يحيى عبابنة : مجلة جامعة البعث ، حمص ، ١٩٩٩م .
٣- بيان إعجاز القران : أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي (ت ٣٨٨ هـ) ، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول ، دار المعارف بمصر ، القاهرة .
٤- تطور البحث الدلالي دراسة تطبيقية في القران الكريم : محمد حسين علي الصغير ، دار المؤرخ العربي ، بيروت لبنان ، ١٩٩٩م .
٥- التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن ، عودة خليل أبو عودة ، مكتبة المنار الأردن الزرقاء ١٩٨٥
٦- دلائل الإعجاز : أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي (ت ٤٧١ هـ) ، تحقيق محمد محمد شاكر ، دار المدني بجدة ، الطبعة الثالثة ١٩٩٢ م .
٧- ظاهرة التقابل الدلالي في اللغة العربية ، عبد الكريم حافظ العبيدي ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، الجامعة المستنصرية ، ١٩٨٩ .
٨- علم اللغة المعاصر مقدمات وتطبيقات : د. آمنة الزغبي و د . يحيى عبابنة ، دار الكتاب الثقافي ، الأردن _ اربد ، ٢٠٠٥م .
٩- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل : الدكتور فاضل السامرائي ، شركة العاتك لصناعة الكتاب ، للطباعة والتوزيع والنشر ، القاهرة ، الطبعة الثانية ٢٠٠٦ م .
١٠- معجم المصطلحات البلاغية : الدكتور احمد مطلوب ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت لبنان .
١١- نحو القران : د. احمد عبد الستار الجواري ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٦ م .